

السياسة عند البشير الابراهيمي-رحمه الله-

الأستاذ: علي يطو

جامعة الجزائر 02

البريد الالكتروني: aliyettou@yahoo.fr

مُقدِّمة:

إن فكرة الكتابة قديمة حول سماحة العَلم¹ العالم العلامة الإمام الهمام، إحدى حسنات الأيام، المُقدِّم المقدام، ولكنَّ الفرصة لم تسنح إلا من مدَّة قليلة، وفترة وجيزة، في مدة من الزَّمن عزيزة، وكان الدَّافعها نشوة اسلامية جميلة، توسَّمتنا فيها كلمات عليمه، جاء طلب توثيق ورقات في موضوع من مواضيعها الكثيرة، ملتزمين ما تم طلبه في مجلتكم المنيقة، بعنوان مفاده: السياسة عند الإمام الإبراهيمي (1306-1383هـ)². وعوداً على بدأ أقول: "تبارك الذي خلق محمداً البشير الإبراهيمي، فجعله كاتب الجزائر الأصيل، وابن العروبة السليل، وحامي حمى الإسلام المثل. أمدهُ بالإلهام فكان عقله ناطقاً بسمو الفكر، ولسانه ذاكراً لله بالشكر، وضميره طافحاً بحب الأمَّة، إلى حدِّ السكر"³، جاهد بقلمه ولسانه فتكلم وكتب كلمات تكتب بماء العين، والنَّاطر إلى آثاره يراها قليلة إلى جهاده ولكن (قليل منك يكفي ولكن ... قليلك لا يقال له قليل)، ونتمنى أن يأتي الزَّمان بمثله مع أنَّ الزَّمان بخيل (وقلما أبصرت عيناك ذا لقبٍ ... إلا -إن فكرت- في لقبه)، لقد عاش محمداً "وهو وصَّاف ماهر لأدواء المسلمين وأدبيتها، يفيض كالسَّيل إذا أفاض فيها"⁴، و"مات محمد فعرفت هذه الطائفة من مات، وعرفت أنَّه

¹ - "العَلم: في لغة العرب معانٍ أشهرها في الاستعمال القديم الجِل، وأشهرها في الاستعمال الحديث: الرَّايَة، وزميلتنا العلم جديدة، وصاحبها الفاضل مجدد". محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي: جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1: 997م) ج2: ص176.

² - "جمعية العلماء جمعية علمية دينية تهذيبية، فهي بالصفة الأولى تعلم وتدعو إلى العلم... وهي بالصفة الثانية تُعلم الدِّين والعربية لأحما شينا متلازمان... ومقتضى الصِّفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حضَّ الدِّين والعقل". ج1: ص199-200.

³ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي: جمع وتقديم نجله: أحمد طالب الإبراهيمي (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1: 997م) ج3: ص17. من كلام مقدمة رئيس الجمعية المعاصر عبد الرزاق قسوم.

⁴ - ج2: ص387.

مات فبكت فضله المدفون، ونفعه الذي فات¹ لقد كان رحمه الله "فخر علماء الجزائر"² كما وصفه صديقه العلامة ابن باديس. (فيا لهما من فرقدين بأفقتنا ... أنارا وغارا فرقد ثم فرقد)، (سلام على الأعلام ما طاب ذكرهم...، وأثارهم في العلم والعلم يخلد)³، رحمهما الله تعالى في التاريخ الصادق، وإلى المقال:-

أولا/السياسة معناها ومبناها: من المعلوم -إن شاء الله- أن "السياسة"⁴، في جميع بلاد الله، وعند جميع خلقه، معنًى محدودٌ قارٌّ في حيّزه من الإدراك...، (كما أيضا)⁵ معناها غير محدود ولا مستقرّ، يتّسع إلى حدود الاتساع، فيحمل ما قارب وما باعد، وما جانس وما خالف، وما اطرّد وما شدّ، ويضيق إلى أقصى حدود الضيق، فتلتوي مسالكه، وتنسّد مجاريه، وتتهافت أقيستّه، ولا يَبَيّن فيه مورّد من مصدر...، أمّا إنَّ السّياسة تكون خيرا لأقوام، وشرّا لآخرين، وتكون عقود حلّية كما تكون عُقدَ خنق، فهذا ما قرأناه في قاموس الاستعمار وعلومنا من مذاهبه، وهو-على علّاته- مقبول، إذا كان للسياسة معناها المعقول، ولكن السّخافة كلّها في هذا التبدّل الذي أصبحت معه كلمة السّياسة كلفظ(البيع)- هذا يخوّف به الصّغار، ولا حقيقة له، وتلك يخوّف بها الكبار ولا معنى لها، وما جاء هذا البلاء إلّا من الوضعية الشاذّة التي بنى عليها نظام الحكم الاستعماري على المسلمين في الجزائر، حكومة (لائكية)⁶ (لائكية)⁶ في الظاهر، مسيحيّة في الواقع"¹. و"إنّ أعلى معاني السّياسة عند

1 - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإبراهيمي: حاشية: ج: 1: ص45.

2- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزائر، وزارة الشؤون الدينية، 1994م، ج: 6: ص156. / نقلًا عن: :

آثار الإبراهيمي: حاشية: ج: 1: ص26.

3- من شعر محمد العيد آل خليفة/ ج: 3: ص40.

4 - "أمّا السّياسة فإنّها- وإن اختلفت ألوها- تأمر بالفحشاء وتدعو إلى الفساد في الأرض، وتفيض بالأنانية، وتبيّن أمورها على التسلط والافتراس. والدّين والسّياسة هما دعامتا الحياة، وقطباها...، فإذا تساندا على الحقّ وتسايرا إلى السّعادة، وكان الدّين هو المرجع عند اشتباه السُّبُل، جاء الخيرُ وتحقّقت المصلحة، كما كان ذلك في الطّور الأوّل للإسلام...، وإذا عتت السّياسة عن أمر الدّين طغت العواطف على العقول، وكانت الفتنة والفساد الكبير، وهذا هو الواقع في هذا العصر". (ج: 2: ص285-286).

5- زيادة مني ليّتضح المعنى.

6 - اللائكية: "معناها وضع سور بين الحكومات وبين الأديان كيفما كان نوعها، ومعناها أيضًا تقوية السّلطة المادّية، وهوين السّلطة الرّوحية" (ج: 3: ص104). "فاللائكية لا همّ لها بل لا معنى لها إلّا محو الأديان، لأنّها خطر على سلطتها الرّمزية في زعمها" (ج: 3: ص119).

عند الحاكمين هو تدبير الممالك بالقانون والنظام، وحياطة الشعوب بالإنصاف والإحسان، فإذا نزلوا بها صارت إلى معنى التَّحِيل على الضَّعيف ليؤكل، وقتل مقوماته ليهضم، والكيد للمستيقظ حتى ينام، والهددة للنائم حتى لا يستيقظ، وهذا المعنى الأخير هو الذي جرى عليه الاستعمار، ووضع في قواميسه، وأقرّه في موضعه من نفوس رجاله ودُعاته، بحيث إذا أطلق بينهم لفظ السَّياسة لا يفهمون منه إلا هذا، وتراهم يحرمون على الشعوب الخاضعة لهم الخوض في هذا المعنى السَّافل، لنأجبرهم إلى الخوض في المعنى العالي، وتراهم يهيئون لتلك الشعوب من قشور ذلك المعنى وقُتاتهِ... هذا معنى السَّياسة عند الحاكمين...، أمّا عند المحكومين فأعلى معانيها إحياء المقومات التي ماتت أو ضعفت أو تراخت، من دين ولغة وجنس وأخلاق وتاريخ وتقاليد، وتصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضَّائعة في منطق وإيمان، ثم الإصرار في استماتة وتضحية، مع اختيار الفُرص الملائمة لكلِّ حالة، درجات بعضها فوق بعض. هذه هي السَّياسة في الجزائر بين الحاكم والمحكوم، يجعلها الأوَّل أداة مساومة، وفخٍّ اقتناص للمذبذبين، وسلاح ترهيب وتخويف للمخلصين، ويجعلها الثاني وسيلة جاه، وذريعة تضليل للأُمَّة². وهكذا تجد أن الشيخ يدرك من معاني السَّياسة أنواعاً شتى، نبه لها، وبين كيف أن كل فريق يسعى حثيثاً لفرض مفهومه هم، وممن كان لهم فهمها يخصه علامة الجزائر الابراهيمية والذي بين أنه، سوف لن يهتم من السَّياسة إلا بما هو مهم غاية الأهمية وهو لبابها، تاركا قشورها مرمية بين أيدي من لا يدري من الفوائد سوى ذلك، فبين أن جمعية العلماء اهتمت بـ: "الباب السَّياسة"، "أما لبابُ السَّياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء فهو عبارة واحدة: إيجاد الأُمَّة، ولا توجد الأُمَّة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة،

¹ - ج3: ص 59-60. مقالات بعنوان: جمعية العلماء: أعمالها ومواقفها. مواقفها من السَّياسة والسَّاسة. في الجزء 3.

² - (ج3: ص 60). ونبّه هنا إلى أنَّ الشيخ لا يتكلم عن حاكم ومحكوم مسلم، حتى لا يأخذ هذا الكلام ديمقراطي أو علماني، أو فيلسوف ويتَّخذ وسيلة للطعن في الحاكم ولي الأمر ونوابه، ذلك أنَّ الخروج على الحاكم غير جائز بأيِّ وجه من الوجوه ولو بكلمة من مثل هذا الكلام، فهو عقيدة سنية بإجماع علمائها ممن يعتدُّ بعلمه وإجماعه ولا عبرة بمن شذَّ إن وجد، لأنَّ النص في هذه واضح جلي، لا يحتمل غير المعنى الذي ورد من أجله وهو طاعة ولاة الأمور كيفما كان الحال، وكلام الشيخ هنا عن وضع قائم في حياته بين حاكم كافر، ومحكوم أغلبه مسلم. وبحث المسألة يطول جداً وقد بحثها كثير بشكل مستقل. / ملاحظة: (=النيابة وكالة من جمهور، والشرط في الموكل أن يكون مختاراً مطلقاً التصرف. ج3: ص 185) / و"قبل النيابة كانت الإمامة، وقبل جحا كان أبو دلامة" (ج3: ص 187).

وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصلية، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالة بقيمتها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها، وترى أنّ وجود تلك المقومات شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط... بأنّ تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدّت (وطناً)، فاسمحوا لنا أن نفتخر بأنّ هذا الباب من حظ جمعية العلماء، له عملت، وفي ميدانه سَابَقَتْ فَسَبَقَتْ، وفي سبيله لقيت الأذى والكيد والاتهام، وفي معناه اصطدم فهمها بفهم الاستعمار، هي تفهمه ديناً، وهو يفهمه سياسةً، اسمحوا لنا حين نعتقد أنّ حظ بعضكم من هذا الباب صفر في صفر، فإن لووّا ألسنتهم بشيء من ذلك كدّبتهم أعمالهم، وصدّمهم الواقع، وإذ حالوا شيئاً من ذلك شَفَّ ثوبُ التصنّع عما تحته فافتضحوا¹ وهكذا اهتمت الجمعية ورئيسها بلباب السياسة، ذلك أنّ المعركة في الجزائر منذ بدايتها-منذ الاحتلال- هي معركة بين (الفرنسية/فرنسا) وبين (العربية/العرب)، وبين (النصرانية/المسيحية) وبين (الإسلام/السلفية). ولهذا كان من نظر الشيخ واخوانه يوم التقى الجمعان أن ما استقر عليه الرأي عندهم يوم كان الاستعمار الغاشم في الجزائرية أنها "تنقسم إلى قسمين:

قسم لا يختلف فيه نظر ولا يتشعب فيه رأي، لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة كانت تعامل بها الجزائر بصورة استثنائية، كحرية القول، والفكر والكتابة والاجتماع والتنقل والتعليم العربي والمساجد وكرف القوانين الاستثنائية الشاذة الخ، وقسم يحتاج إلى تأمل ودقة ونظر، وهي الحقوق السياسية...، وقد كانت تغمر المحافل الجزائرية أسماء عتيقة في وضعها أو في معناها، ولكل برنامج أشياخ وأنصار، وكان من رأي كاتب هذه الأسطر وجماعة من المفكرين، إلغاء تلك البرامج كلها، لأنها وُضعت في ظروف ضيقة وبُنيت على اعتبارات فردية، وفي بعضها ما لا يتفق مع الرغائب الجزائرية والإسلامية. وفي بعضها ما يتصادم مع الذاتية الجزائرية² الإسلامية ووضع برنامج إسلامي جزائري روحاً ومعنى واسماً وينتزع من حالة المسلم الجزائري التي هو عليها الآن، وكان من حسن التوفيق أن رجعت الآراء إلى هذا الرأي"³. فترى هنا إسهاب العلامة في بناء أرضية سياسية للثورة الجزائرية أساسها دستور إسلامي عربي جزائري مساو في

¹ - (ج:3، ص64) وانظر: العدد4 من البصائر، 29 أوت 1947م.

² - يقول الإبراهيمي "هي عبارة عن العروبة والإسلام مجتمعتين في وطن" (ج:3، ص61).

³ - آثار الإبراهيمي: ج:1، ص231.

أقل أحواله-للدستور الفرنسي لأجل إضعاف سيطرة هذا الأخير وإظهار كلمة الجزائر وإسماعها في الجزائر ومن ثمّ خارجها. كانت هذه الاتفاقية في اليوم التمهيدي للمؤتمر بنادي التّرقّي الذي كان في حدود سنة 1936م وذكرنا نحن هذا التاريخ مع العلم أن الإبراهيمي لم يذكره في نصه الآنّف الذّكر، استنباطاً من تاريخ نشر هذا الكلام وهو في جريدة (البصائر)¹، لأنّ الأمة حسب العلامة "تجلو ماضيها القريب معتبرة، وتبلو حاضرها المضطرب مختبرة، لتقدّم على بناء مستقبلها مُستبصرة"².

ثانيا/ موقف الشيخ من التّحرّب والتّشيع والتفرّق: يقرر الشيخ أنه لن يسلم للناس دينهم مادام خطر التّحزب قائماً، ولهذا حذر من التفرّق والتّحزب والتّشيع: لأجل أن تجتمع الأمة وكلمتها كصف واحد، يقاتل في طريق واحد لتحرير الوطن الواحد، فيردّ الشيخ على المجيزين الأحزاب والدّاعين إليها والمنتصرين لها الرّائين تعددها مصلحة بأنّ -يقول الشيخ: "نراهم يقولون: إنّ كثرة الأحزاب في أمةٍ عنوان يقظتها وانتباهها، وضمان وصولها إلى حقّها، ولكنّا لم نرَ من تعدد الأحزاب إلا نقصاً في القوّة، ونقصاً للوحدة، وتنقيساً على الخصم، واشتغالاً من بعضهم ببعضهم، وتعالّت كلمة القرآن، فإنّه لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجمع إلا في مقام الخلاف والهزيمة (فاختلف الأحزاب من بينهم)(مريم: 37)، (جنّد ما هنالك مهزوم من الأحزاب)(ص: 11) وإنّ حزب الله في الأمة الجزائرية جمعية العلماء"³.

¹ -آثار الإبراهيمي: ج1: ص238. وأنظر قائمة القرارات ومعها قائمة الاقتراحات الفردية، وأهم مقررات المؤتمر، التي اتفق عليها الجزائريون وحولها. في آثاره رحمه الله ج1: ص251-252. وأما ما تم بعد المؤتمر ولم تنشره الصحف فهو في ج1: ص254. وكان لجمعية العلماء مطالب نشرها ابن باديس قبل تاريخ المؤتمر بزمّن في "المنتقد" و"الشهاب" وغيرهما. يوم كانت - يقول الإبراهيمي - الألسنة خرّصاء...، لتقرأها الأجيال القادمة، فتعرف فضل علمائها عليها. والكلام في نفس الجزء ص256-257. وجريدة الأمة، عدد 85، في 11 أوت 1936. وأنظر: (جريدة البصائر، السنة الثانية، العدد 67، الجمعة 3 ربيع الأول 1356هـ/ 14 ماي 1937م).

² -آثار الإبراهيمي: ج1: ص239. وانظر: جريدة البصائر (السنة الأولى، العدد: 26، الجمعة 13 ربيع الثاني 1355هـ/ 3 جويلية 1936م) تاريخ كتابة مقال انعقاد المؤتمر الإسلامي.

³ -آثار الإبراهيمي: ج3: ص66. المقالة الثالثة من مقالات: (جمعية العلماء: أعمالها ومواقفها). وفي نفس الموضوع يضيف كلاماً حول الفرق بين أحزاب ذلك الزّمن من العرب وأوروبا، ظاهر كلامه جواز التّحزب إن كانت بتلك الشروط الأوربيّة، وكلامه السّابق فيه أن الله لم يجر التّحزب لأنّها تفرّق، والذي يظهر أنّ كلامه الذي يُجيز فيه يُحمل على الجدل والمناقشة، أي يا من تخالفني في حرمة الحزبية وضلال طريقها وأنّها سبب هدم لا سبيل بناء عندنا، على فرض أن الخير فيها حسبكم جدلاً، فإنّ أحزابكم لا تشبه الأحزاب الأوربية القائمة على

وأما أولئك المخلفون في الأحزاب، فهم ككاهن كذاب يفترى على رب الأرباب، بالقول العُجاب، رزقه في نابه، يا ويل من دقّ بابه، لقد جاوز الفرات تزويره. ويحك، أما تخاف أن تهلك، يوم يقال للذي بُعث فينا: إنه ليس من أهلك. وأما معنى اتحاد الأحزاب الجزائرية لمواجهة فرنسا: فقد بيّن فيها الشيخ الحقّ، وركّز على ما هو مشهور منهم، وكان من منهجيته أن لا يُشهر المغمور، ولا يعطي الفرصة للمشهور، ولم يكن مشهوراً في الجزائر وقت الشيخ من الأحزاب سوى حزبي (حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري)، و(حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية)¹، أم الحزب الشيوعي الجزائري فلم يكن له تأثير واضح على الأمة كونه ملحد من أساسه (فهو يقوم على قواعد ماركس و إنجلز و لينين)، ولكثرة الأوروبيين فيه، وكان هذا الحزب الأخير لا يؤمن بالانفصال عن فرنسا، وقد كانوا من قبل يدعون الجزائريين ليكونوا قطعة من الاتحاد السوفياتي²، وكان يرى الشيخ أن الأحزاب الجزائرية يجب أن تكون تحت الجمعية كون الأخيرة هي ممثلة الأمة وحدها فهي حافظة لغتها ودينها ووطنيتها ولا غرض لها سوى نصرة إسلامها³ ولسانها وجزائريتها. ولذلك فهي أحق بأن تكون فوق الأحزاب "ما ظهر منها وما بطن، وإنّ مبدأها أعلى من المبادئ كلها، ما استسرّ منها وما علن، ولقد اتّصلت بجميع الأحزاب فرادى ومجتمعين في المصالح العامة، فأرثهم بأقوالها وأعمالها أنّها فوق الأحزاب، وقد احتكت بها جميع الأحزاب، من خاطب لودّها إجلالاً، إلى رائم من نفوذها استغلالاً، إلى عامل على الكيد لها احتيالاً، فأرثهم بمعاملاتها لجميعهم أنّها فوق الأحزاب، ودعت الأحزاب إلى الصلح والاتحاد، وجمعتهم للاشتراك في العمل، فكانت في ذلك ملّة فوق الأحزاب"⁴ وأولى. فكان -رحمه الله- يخاطب قومه -بعد أن حذرهم من التفرق- إلى الاتحاد والاجتماع بأن يحذروا من فرنسا، يظهر هذا في "وضع كلّ حزب للجزائر دستوراً بنى

العلم والتربية والمستكملة "تربيتها وصححت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، وعلماء أحيوا اللغة، ومعلمين راضوا الأجيال على ذلك، وأين نحن وأحزابنا من ذلك؟" (ج3: ص66). والله أعلم.

¹ - والتي كان اسمها من قبل: حزب الشعب الجزائري.

² - وأنظر جريدة التّضال الاجتماعي (La lute sociale). 12 يناير 1923. وعنوان المقال: ماذا

ستكون الجزائر سنة 1950م (Que sera l'Algérie 1950) ماذا ستكون الجزائر سنة 1950م/ نقلا عن حاشية: ج3: ص28.

³ - "وما زلنا نشهد من صنع الله في نصر الحقّ أنّه يأتي بيّناته وحججه من حيث لا يحتسب أهله، ويتنزع الشّهادة له من أعدائه من حيث لا يشعرون، كما يُزل النصر على عباده المؤمنين بعد أن يستيسوا" (ج3: 195).

⁴ - ج3: ص69.

أصوله وفروعه على ما يوافق هوى حزبه لا على ما يوافق مصلحة الجزائر"¹، ومن حارب الجزائر والجمعية، فالشيخ يقرر انه سوف لن يدّخر جهداً لمحاربة من حارب الدين والعربية والجزائر، بسياسة العالم المصلح الحكيم، ويبرر محاربته بقوله: "وما ذنبنا إذا رضي أصحاب هذه الأسماء أن يكونوا مظاهر للفكرة التي ينكرها الإسلام، ويمقتها المسلمون، وثحاربهامنا الألسنة والأقلام"²، وهكذا يتكلم الشيخ عن السياسة من أجل فكرة "الوطن الجزائري"، فيقول إن "الوطن مسلم عريق في الإسلام، عربي أصيل في العروبة، وعلى كل وطني مخلص في خدمة وطنه أن يبدأ من هنا...، وما بذل الاستعمار هذا الجهد في حرب الإسلام والعربية بهذا الوطن، إلا ليجرّده من اسم (الوطن) ويجرّد أهله من صفة (الوطنيين)، لأنّ الوطن إذا جرّد من هذين، لم يعدّ لأن يكون (قطعة أرض موات)، يحوزها من طلب أو من غلب ومازالت فرنسا-على جمهوريتها ولانكيبتها- تعدّ المبشرين بالمسيحية من أكبر الوطنيين، وتعدّ الناشرين للغتها في الأوطان الأخرى في طليعة الخادمين لوطنهم، لعلمها أن الوطن كلّ، أثمن أجزاء اللغة والدين، فكيف بمن يخدم دينه في وطنه، ويزرع لغته في أرضها؟ ويا ليت قومي يعلمون!"³، وأقرأ "قرار 7 ديسمبر 1930م (أي سنة الاحتلال بعينها)". كل هذا جعل فرنسا تعترف رغم أنفها، في أحد تقارير إدارتها، من أن الإبراهيمي "عمل على تحقيق الهدف الوطني"⁴، ولا ننسى أن نبذ الفرقة والاختلاف والاجتماع حقّ للوطن علينا لحفظ استمراريته⁵. لأن "الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا ووديعة العرب في ذمتنا"⁶، وأنّ للوطن "على كلّ حرّ كريم دين! وفاؤه الحبّ، وكفاؤه النفع والجميل"⁷، ويصف الوطن بأنّه

¹ - ج3: ص186-187.

² - ج3: ص112.

³ - ج3: ص160-161.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: الإبراهيمي في تلمسان... مجلة (الثقافة)، عدد 101، ص103. وهو ينقل عن تقرير

فرنسي. / نقلاً عن: آثار الإبراهيمي: حاشية: ج1: ص38.

⁵ - وأنظر: مقال: اتحاد الأحزاب بالمغرب الأقصى (بيان موجه من أحزاب المغرب إلى الرأي العام المغربي

خاصة والرأي العام العربي عامة). ج2: ص: 399. والبصائر: العدد 151. السنة الرابعة من السلسلة الثانية،

16 أبريل 1951م، ومن أهم ما دار هنا (أولاً:....، لا مفاوضة قبل إعلان الاستقلال) وكان هذا فيما

اجتمع عليه المغرب.

⁶ - آثار الإبراهيمي: ج2: ص431.

⁷ - ج3: ص201.

"أبو الجميع"¹. ليصل إلى تقرير مفاده أن العلماء يحاربون السياسة بالسياسة، من دون أن يلزم من محاربة السياسة محاربة اسمها ورسمها كلها، أو الحزبية ككل، بل يؤمن بأن لكل من السياسة والتحزب سلبيات وإيجابيات، وخرافات ومعقولات، ولباب وقشور، ومن الأدلة أن العلماء يهتمون بلباب السياسة لا بقشورها، ومهمات الأمور لا بسفاسفها"²، فكان شوكة في حلوهم ولم يتخذ سبيله سرايا في دنيا الناس فقرّر:

ثالثاً/ نحن سياسيون: لأن الشيخ يؤمن بأن "السياسة عملاً طبيعياً، معقولاً ووسيلة من وسائل خدمة الوطني لوطنه ولبنى جنسه"³، ويضيف: "نحن سياسيون منذ خلقنا، لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة"⁴ في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها...، نحن سياسيون طبعاً وجبلةً، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب، فما سار سائر في السياسية إلا على هُدانا، وما ارتفعت فيه صيحة إلا وكانت صدى مُردّداً لصيحاتنا...، وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين لنبنى عليه كل ما يأتي بعده...، نحن سياسيون لأنّ ديننا يعدّ السياسة جزءاً من العقيدة، ولأنّ زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنّها آية البطولة، ولأنّ وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء، ولأنّ السياسة نوع من الجهاد ونحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة، ولأنّ الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يغرس في الجزائر إلا ثمرتين: بغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال، وصيرورة كل جزائري سياسياً حتى الأئمة"⁵، فنصّح رحمه الله فأصلح، وتكلّم عن عدوّه ففضّح، وللخطأ فصّح، فقوّت على فرنسا الفرصة، بأنّ الجزائر من فرنسا قطعة، ولبنّة، مبطلا لطمعها ولو ردّدت ذلك "زجلاً بالتسييح" ولتعلّم أنها لم تكن رومانية ولا تركية وأن "ليست فرنسية، ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أولنا، ويقولها آخرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى

¹ - ج3: ص201.

² - ج3: ص180.

³ - (ج3: ص76).

⁴ - وفي هذا الباب ألف العلماء كتباً مستقلة باسم: "السياسة الشرعية" منهم العلامة شيخ الإسلام "ابن تيمية" (ت: 721هـ) - رحمه الله -، ويبنوا أن الله يرسل الأنبياء لأمرهم لتسوسهم، ولا أدل على ذلك من سياسة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكيف حكموا الدنيا في أيام معدودات، ولا ننسى دستور النبي في المدينة، وهذا بالوحي الذي كان معه.

⁵ - آثار الإبراهيمي: ج4: ص261. مقال: بداية التّهاية.

الله عليها خلفنا"¹. فرنسا التي حاولت الجمع بيننقيضين وفكرتين متضادتين أصلاً وفصلًا ورسمًا ووسمًا، أعني: (فرنسا-إسلام)، "كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة"². فالجمع بينهما إذاً تدجيلة قديمة جديدة، في السياسة الفرنسية³ مع أنّ "عصرنا هذا عصر سياسي، لا يدور فلكه إلا على السياسة، وأركان الحياة فيه مدبرة بهذا الطبع الخامس الذي يسمّى السياسة...، والسّماجة السّمجة هي تدخّل السياسة في الدّين...، وأن تجعل منه آلة لأغراضها الخسيسة، وأن تسخر رجاله لخدمة ركابها، وهذا بعينه ومينّه ما هو واقع في الجزائر"⁴. ومن الحكمة تدخّل الدين في السياسة - حسب الشيخ رحمه الله- تقويماً وتعديلاً وتوجيهاً وترتيباً ليُحقّق الغاية التي من أجلها أنشئ، كونه خادماً لمصلحة البشر والدين، فالشيخ الإمام كفرد جزائري فعن نفسه يقول: "وأنا بصفتي جزائرياً: من حقّه الطبيعي أن يفكر في الحالة التي عليها وطنه وأبناء وطنه، ومن حقّه أن يبدي رأيه بكل صراحة في ما يجب أن يناله من الإصلاحات، وبصفتي عالماً مسلماً من واجبه أن يدافع عن الإسلام وأحكامه ولغته ودينه...، وبصفتي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من واجبه أن يعبر عن رأيه في المشكلات الإسلامية الجزائرية الخطيرة، ويشارك برأيه فيما يجب من الإصلاح السياسي والتعليمي إذ هما أخوان للإصلاح الدّيني...، وأصول هذا الإصلاحات الثلاث-وهي الإصلاح السياسي والإصلاح التعليمي والإصلاح الاقتصادي"⁵، وتلحظ في كلامه ربط السياسة بالدين والعروبة، فبيّن رحمه الله، أنّ هذا المشروع ليس مما يرضي الأمة الإسلامية الجزائرية، وهذا بيان نعترض به على كل من أهمل دور الجمعية في تحرير الجزائر في السياسة

¹ - ج:3 ص:349.

² - ج:3 ص:350. وهكذا "يجعلون الاستشراق ذريعة لاستهواء...، المفتونين بالغرب، الخاضعة عقولهم وأفكارهم لعقوله وأفكاره، وأنا أسمي ثلّة من هؤلاء المستشرقين(حكوميين) تسمية صادقة أصدر فيها عن روية وثبّتت، فما هم إلا أذناب لحكوماتهم، وما هم إلا موظفين أو مستشارين حكوميين، وما هم إلا (تراجمة) للحكومات الاستعمارية وأدلاء، يترجمون لها معاني الشرق، ويدلّونها على المداخل إلى نفوس أنبائه وإلى استغلال أوطانه، وما هم إلا آلات في أيدي وزارات الخارجية، تستعملها لأبطال الشرق، وإحقاق باطله، ولبقاء الأمم الضعيفة في الاستعباد، أو إرجاعها إلى الاستعباد...، استعمار العقول أولاً والأوطان ثانياً، فهم روّاد عقليون قبل القوّاد العسكريين...، ومن هذه الطائفة صاحب فكرة(فرانس-إسلام)". ج:3 ص:351-352. وكان هنا يردّ على المستشرق(لوي ماسنيون) الذي صوّر للغرب أنّ الصوفية هي الإسلام !!!

³ - ج:3 ص:160.

⁴ - ج:2 ص:286.

⁵ - ج:2 ص:134.

والثورة- هيكل للإصلاح جديد على أسس آتية: "أولاً: إنشاء جنسية جزائرية تشمل جميع الطوائف التي تعيش بهذا الوطن...، ثانياً: تستبدل جميع التشكيلات الاستعمارية بحكومة تسمى (الحكومة الجزائرية)...، ثالثاً: الوظائف الإدارية تُعطى لجميع الجزائريين على أساس الكفاءة الشخصية. رابعاً: تعتبر اللغة العربية لغة رسمية... خامساً: يحفظ لأهل كل دين حقهم في إقامة شعائر دينهم...، سادساً: الأحوال الشخصية للمسلمين خاصة، تجري على التفصيل السابق في إصلاح القضاء الإسلامي¹. هذه آرائي التي أعتبرها بحق آراء الجمهور الأعظم من الأمة الإسلامية الجزائرية، أقدمها للجنة"². هذا ولم يتوقف الإمام عند هذا الحد. بل أسهم في كشف عوار الفرنسيين وخوآن أمانة الوطن في مقالاته التي دبّجها البصائر بعد إحيائها، بأبدع كلمات تخط يده، فترسم أروع المعاني، لأصدق المطالب³. ومن أهم ما أسهمت فيه الجمعية هنا برئاسة الإمام رحمه الله: (1) سعي الإمام في جمع الأحزاب على اختلافها في (هيئة أحباب البيان). (2) رفضه مشروع دوغول 1944م القاضي بالإدماج، وهو ما يخالف إسلامنا من كل وجه. (3) دعوته لتوحيد الأحزاب الجزائرية، وسعيه في ذلك طيلة (سنة أشهر كاملة)⁴. (4) رسالته القوية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية سنة 1949م، حيث أكد له فيها أن الشعب الجزائري "أصبح لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة: ذاتيه الجزائرية، وجنسيته، ولغته العربيتين، ودينه الإسلامي، لا يستنزل عنها...، ولا يبغي عنها حولا، ولا بها بديلاً"⁵. (5) إسهام جمعية العلماء في تأسيس "الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها". (6) اتصاله بالوفود العربية الإسلامية في مؤتمر الأمم المتحدة الذي عُقد بباريس في آخر سنة 1951م. (7) دعوته إلى تشكيل "اتحاد أحزاب الشمال

¹ - فصله في: ج2: ص: 134 وحتى 135.

² - ج2: ص137. ويشرح في ص138 حقّ الجزائر في ما عبّر عنه بمقال رائع معنون بـ: (التقرير الذي قدّمه مجلس إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الحكومة الجزائرية- بعد انعقاد اجتماعها في 5 أوت 1944م في المسائل الثلاث: المساجد، التعليم، القضاء-)

³ - أنظر مقال: البصائر في سنتها الرابعة. ج2. / انظر مقال: خطاب أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة/ ج الثاني. وانظر: عبد الرحمن بن العقون: الكفاح القوي والسياسي...، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م، ج3: ص224.

⁴ - أنظر مقال: كيف تشكلت الهيئة العليا لإعانة فلسطين، في الجزء الثاني.

⁵ - أنظر مقال: كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية، الجزء الثالث.

الإفريقي"¹. وتلك هي باختصار شديد، بعض أهم أعمال الإبراهيمي -رحمه الله- السياسية. وهكذا أسهم الإمام في لمّ شمل السياسيين الجزائريين - مع اتخاذ الإسلام والعروبة الجزائرية محوراً للدعوة والاتحاد، وأنه الوسيلة الوحيدة لنجاحه-، من أجل تشكيل هيئة سياسة تدافع عن حقوق الجزائري، حيث (تمّ بسعيه-وسعي جمعية العلماء- في وقت معتبر جمع الأحزاب في هيئة أحباب البيان)² التي جمعت القوى الوطنية في جزائرنا باستثناء الشيوعيين، وأما استهداف فرنسا لتعطيل المؤتمر الإسلامي سنة 1936م فقد امتد ليظهر أثره يوم حوادث 8 ماي 1945م. وهكذا بيّن -رحمه الله- "لو أنّ هذه الجامعات التي تسمّى الأمم أوتيت رشدها لجعلت السلطان الأعلى في الحياة للذين، ولجعلته هو المهيمن على السياسة"³، فكان للجمعية، كما يقول لسانها العلامة الإبراهيمي: "في الحياة السياسية والاجتماعية للأمة الجزائرية آراء مخصّتها التجربة، وأيدها المنطق، ومواقف لم تُراعَ فيها إلا المصلحة المحقّقة أو الرّاحة"⁴. وبعد أن بين الشيخ معنى السياسة ودور العلماء فيها وكيف انها سبيل للإصلاح، اعترض على رجال لا يعلمون من السياسة سوى اسمها، زاعمين أنهم بالسياسة أحق وأهلها، مبينا حالهم بقوله: "رجال السياسة من قومنا، يريدونها مُتَبَوّاً لزعامتهم المزعومة، وسيادتهم الموهومة، فيعلّونها بالأباطيل، ويروّضونها على التّصفيق والتّهليل"⁵، كلّ ذلك مما لا تقوم عليه عقيدة سياسية ولا تربية وطنية، إنّنا لو جمعنا كل آرائكم في السياسة، وفرضنا تحقيقها لما أفادت الأمة شيئاً، وهي بهذه الحالة من التّربية فكيف وأنتم متباينون؟ وكيف وأنتم من الخلاف يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً؟"⁶. وما دام أن العلماء سياسون ف:

¹ - تم تلخيص هذه العناصر من مقال: محمد الهادي الحسني، البليدة(الجزائر) 18 أكتوبر 1996/ من ج:2: ص 30-33.

² - أنظر: مقال: دعوة مكرّرة إلى الاتحاد، ج:3: ص304-306. من آثار الإمام.

³ - ج:2: ص285.

⁴ - ج:3: ص54.

⁵ - ج:3: ص54-55. وأنظر: العدد2 جريدة البصائر، 1 أوت سنة 1947م.

⁶ - أنظر إلى واقعهم ومع ذلك كل جماعة تدّعي الحق، وتلعن أختها، لتبرز على السّاحة، مدّعية الصدق ومتهمة للعلماء بأنهم - (تيمية، وهابية، باديسية، واليوم: جامية، مدخلية، تشابخت قلوبهم وشياطينهم) - يكفرون ويفسقون ويظلمون، ولكن القوم الذين استبدلوا شريعة الله بشريعة من عند أنفسهم (ديمقراطية وشيوعية وعلمانية واشتراكية وفلسفية ...)، واستبدلوا الوحي المعصوم ببنات أفكارهم الموهومة، تسبق شهادة احدثهم بمينه، لا شك أنّ هدفهم هو محاربة الإسلام ارضاء للغرب المسيحي.

رابعاً/ واجب العلماء، سياسة أمتهم: وقد جهل أو نسي أو تناسى الغرب الفرنسي لطيفة مفادها "أنّ الإسلام والعروبة شيئان ليست فيهما قابلية الدّوبان والانمحاء¹، لأنّ فيهما من أثر يد الله ما يعصمهما من ذلك"²، فكان القبول إذن. هذا ولا يبعد صوابا القول "إنّ مجدي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسّسوا جمعية العلماء³، أي الشيخ عبد الحميد بن باديس وأشدّ أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمي"⁴، الذي كان عالما عاملا سابقا إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، مفتاحا للخير مغلاقا للشر. وجعلناهم مجدي فكرة الوطن الجزائري دون غيرهم، لأن العدو فرنسا نفسها شهدت بأنّ: "العلماء هم الذين أيقظوا الرأي العام من سباته"⁵، ولمثل هذا كانت رسالة الإبراهيمي(الإسلام، والعروبة، والجزائر)، ذلك أنّ: "الأوطان(=الجزائر) تجمع الأبدان، وأنّ اللغات(=العربية) تجمع الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواح ويولفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها هو الدين(=الإسلام)، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة"⁶.

والنتيجة أن التحرير السياسي الذي قام به الشيخ لا يقوم به أي أحد، ولا يقوى عليه إلّا العلماء المصلحون، كونه أثر طبيعي للإصلاح الديني. ذلك أنه "لا توجد الأمّة إلّا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليدها صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصلية، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغلاة بقيمتها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، وتستमित في سبيلها، وترى أنّ وجود تلك المقومات

¹ - هذه الفكرة، أعني فكرة القابلية تلحظ هنا أنّ صاحبها هو العلامة الإبراهيمي وليس مالك بن نبي، والسبب ينسبها له كثير وقد ذكر القابلية في هذا المقال أعني: فصل الدين عن الحكومة...، لمحات تاريخية، العدد 156 من البصائر، 21 ماي 1951 من حاشية ج3: ص162. وحسب اطلاعي على تراث الشيخ لم أرى أنّه ذكر الكلمة قبل هذا التاريخ، فليتنبه.

² - ج3: ص163.

³ - أنظر مقال: جمعية العلماء: أعمالها ومواقفها. الجزء 3.

⁴ - محمود قاسم: الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائري (القاهرة، دار المعارف، 1968م) ص28/ نقلًا عن: آثار الإبراهيمي: حاشية: ج1: ص25.

⁵ - أنظر: (شارل أندري جوليان: إفريقيا الشمالية تسير. تعريب: المنجي سليم وآخرون، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م) ص133. / عن مقدمة ج1 من آثار الإبراهيمي: ص25. / أمّا علماء السوء فلا حقّ لهم في ميراث النبوة، إذ يستحقّ الميراث من هو أهلّ للعلم، لا الذين سمّوا أنفسهم علماء.

⁶ - آثار الإبراهيمي: حاشية: ج1: ص163. / ما بين قوسين زيادات مّتي لتقريب المعنى.

شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط...، بأنّ تلك المقوّمات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدّت (وطنًا)...، وأنّ الاستعمار ما عكف على هدم تلك المقوّمات قرناً كاملاً إلاّ لأّنه يعلم أنه سيأتي يوم يصيح فيه صائح بكلمة (حقي)¹، ولهذا كانت للجمعية خطة ومنهج وطريقة في الفكر والعمل والقول والفعل والترك والسياسة، جزاها الله خيراً.

¹ - ج3: ص64.